

کتاب التاج

للجاحظ

بمحقق أحمد زکی باشا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

”الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير.“

أحمده على تتابع آلائه، وتواتر نعمائه، وترادف مننه، وأستهديه وأستوفيه لما يرضيه ويرضى فيه.

وأشهد أن لا إله إلا الله الذي لا شبهة له ولا نظير، الذي جلّ عن الأجزاء والتبعيض، والتحديد والتمثيل، والحركة والسكون، والثقل والزوال، والتصرف من حال إلى حال، لا إله إلا هو الكبير المتعال!

”وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأمينه ونبيه! ابتعته على فترة من الرسالة وطُمُوس من الهداية ودروس من شرائع الأنبياء والمرسلين “لُبْدِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيَى الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ“ والعربُ تَدُّ أولادها وتنسأك دماءها وتنبأوح أموالها وتعبدُ الآلات والعُزَى ومَنَاءَ الثالثة الأخرى. فصعد بأمر ربه، وجاهد في سبيله، ودعا إلى معالم

(١) هذه الكلمة مأخوذة عن صـ .

(٢) الوارد في صـ : ”فتاوح“ . ولما كان الباق يدل على التناهب واستباحة الأموان . فذلك صححت الكلمة بردها إلى مادة (ب وح) . قال في لسان العرب : ”والإباحة شِبْهُ التَّهَيُّ ، وقد استباحه أى آتبه“ .

على أننى لم أعرّعل هذا الحرف مستملاً بصيغة التفاعل .

دينه، وجاء بما أعجز الحق والإنس أن يأتوا "يُمثِّلُهُ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا." فصلَّى الله عليه وعلى جميع المرسلين! وخصَّه بصلاة من نوافله دون العالمين! وعليه السلام ورحمة الله وبركاته! (١)

أما بعد.

فإن الذي حدانا على وضع كتابنا هذا معان:

منها أن الله (عز وجل) لما خصَّ الملوك بكرامته، وأكرمهم بسلطانه، ومكَّن لهم في البلاد، وخولهم أمر العباد، أوجب على علمائهم تعظيمهم وتوقيرهم وتعزيرهم وتقريظهم. كما أوجب عليهم طاعتهم والخضوع والخشوع لهم. فقال في محكم كتابه: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ." وقال عز وجل: "أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ." (١٠)

ومنها أن أكثر العامة وبعض الخاصة، لما كانت تجهل الأقسام التي تجب للملوكها عليها - وإن كانت مُتَمَسِّكة بِمُحَلَّةِ الطاعة - حصرنا آدابها في كتابنا هذا لنجعلها قدوة لها وإماماً لتأديتها. (١١)

وأيضاً فإن لنا في ذلك أجرين: أما أحدهما فلما نبهنا عليه العامة من معرفة حق ملوكها، وأما الآخر فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل ماثل عنها وردَّ كل نافرٍ إليها. (١٥)

ومنها أن سعادة العامة في تجميل الملوك وطاعتها، كما قال أردشير بن بابك: "سعادة الرعية في طاعة الملوك، وسعادة الملوك في طاعة المالك."

(١) الفقرتان المحصورتان بين نجمتين * مأخوذتان عن صه.

(٢) في صه لتأديتها.

ومنها أن الملوك هم الأئس، والرعية هم البناء. وما لأئس له مهديم.
ومنها أننا ألقنا كتاباً قبل كتابنا هذا، فيه أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة.^(١)
وكان غير ذلك أولى بنا وأحق في مذهبن وأحرى أن نصير عنايتنا إلى ما يجب
للملوك من ذكر أخلاقها وشيخها، إذ فضلها الله على العالمين، وجعل ذكرها في الباقيين
إلى يوم الدين.

ألا ترى حين ذكر الله تعالى الأمم السالفة والقرون الخالية، لم يقصد من ذكرها
إلى وضع ولا خامل؟

بل قال تعالى حكاية عن مضي منهم : ”رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلَّوْنَا
السَّبِيلَا.“ وقال تبارك اسمه : ”اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.“
وقال جلَّت عظمته : ”أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ.“
وقال جلَّ وعلا : ”وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ
فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.“
وقال تقدست أسماؤه : ”إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا
أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً.“

وقال تبارك وتعالى : ”قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ خَيْرُ الْإِنْسَانِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.“
وقال عز وجل، وقد بعث موسى عليه السلام إلى أعني خلقه وأشدَّهم عنوداً
وصدوقاً عن أمره : ”إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ
أَوْ يَخْشَى.“

(١) فسرهما في صم بالكجاعة. وحينئذ تكون مماثلة للفظه Héroïsme عند الفرنسيين.

(٢) في صم : طبناء.

فَلْيَفْهَمِ الْحُكَمَاءُ هَذِهِ الْأَعْجُوبَةَ الَّتِي وَصَلَتْ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى! فَإِنَّ فِيهَا حِكْمَةً عَجِيبَةً وَمَوْعِظَةً بَلِغَةً وَتَنْبِيْهًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ .

حَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا عَنْ شَيْبَةَ عَنْ وَرْقَاءَ عَنْ أَبِي أَنَسٍ أَبِي نَجِيحٍ ^(١) عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا" قَالَ: كَنِيَا. ^(٢)

⑤

وإِنَّمَا أَمَرَهُمَا بِذَلِكَ لِأَنَّ الْمُلُوكَ - وَإِنْ عَصَى أَكْثَرُهَا - فَمِنْ حَقِّهَا أَنْ تُدْعَى إِلَى اللَّهِ بِأَسْهَلِ الْقَوْلِ وَأَلْيَنِ اللَّفْظِ وَأَحْسَنِ الْمَخَاطَبَةِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا حُكْمُ اللَّهِ فِي الْعَاصِي مِنَ الْمُلُوكِ وَالَّذِينَ آدَعَوْا الرُّبُوبِيَّةَ وَجَمَحُوا الْآيَاتِ وَعَانَدُوا الرُّسُلَ ، فَمَا ظَنُّكَ بِنِ أَطَاعَ اللَّهُ مِنْهَا ، وَحَفِظَ شَرَائِعَهُ وَفَرَائِضَهُ ، وَقُلَّدَ مَقَامَ أَنْبِيَائِهِ ، وَجَعَلَهُ الْحُجَّةَ بَعْدَ حُجَّتِهِ ، وَفَرَضَ طَاعَتَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ :

فَرَأَيْنَا - إِذْ أَخْطَأْنَا فِي تَقْدِيرِنَا أَخْلَاقَ أَهْلِ الْبَطَالَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ الْأَدَابِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الشَّرَفِ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ - أَنْ تَتَلَفَى مَا فَرَطَ مِنَّا بِوَضْعِ كِتَابٍ فِي أَخْلَاقِ الْمُلُوكِ وَخَصَائِصِهَا الَّتِي هِيَ لَهَا فِي أَنْفُسِهَا ، وَأَنْ تُخَصَّ بِوَضْعِ كِتَابِنَا هَذَا الْأَمِيرُ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : إِذْ كَانَ بِالْحِكْمَةِ مَشْغُوفًا ، وَعَلَى طَلِبِهَا مُتَابِرًا ، وَفِيهَا فِي أَهْلِهَا رَاغِبًا ، لِيَبْقَى لَهُ ذِكْرُهُ وَيَحْيَا بِهِ أَسْمُهُ ، مَا بَقِيَ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ !

إهداء الكتاب

١٥

(١) فِي ص: حَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا عَنْ مُقَدِّمٍ عَنْ أَبِي أَنَسٍ أَبِي نَجِيحٍ [وَكُلُّهُمْ مِنْ رِوَاةِ الْحَدِيثِ]

(٢) فِي هَامِشِ ص: "وَكَانَ لَهُ ثَلَاثُ كُنَى: أَبُو الْعَبَّاسِ وَأَبُو الْوَلِيدِ وَأَبُو مُرَّةٍ" . وَأَنْظَرَ كَتَبَ التَّحْسِيَةَ ،

وَأَنْظَرَ "الْمُسْتَرْفِ فِي كُلِّ فَنٍّ مُسْتَرْفٍ" لِلْأَبَشِيِّ (ج ٢ ص ٤٤) .